الإلزام الأَخلاقي في المنهجِ العقليّ في مصر في القرن العشرين

الباحثة / عائشة جاسم محمد السعيد (*)

المقدمة :

اهتمَّ الباحثون العربُ في القرنِ العشرينِ بالقضايا الأَخلاقيّةِ اهتماماً ملحوظاً ما بين تحقيقٍ وترجمةٍ ودراسةٍ ونشرٍ، وكان لجمهوريّةِ مِصرَ العربيّةِ الدّورَ الأَبرزَ والحضورَ الأَلمعَ في هذا المَيْدانِ، لذا تجدرُ دراسةُ نتاجِ مفكّريها الأَخلاقيّ، توثيقاً لهذا الجهدِ الفكريّ، وتحليلاً لمناهجِه، وفهماً لاتّجاهاتِه وأَدواتِه.

ويعتبر المنهج العقلي من أبرز مناهج التفكير الأخلاقي في مصر في القرن العشرين الذي اعتمدَ أَعلامُه على العقلِ كأَداةٍ معرفيّةٍ أَساسيّةٍ في النظر والحُكم والاستدلال، أَمّا أَدواتُ المعرفةِ الأُخرى كالنّصِّ والوجدانِ والضّميرِ والتّجربةِ المتمثّلةِ بالحسيّةِ الواقعيّةِ أَو المستخلصةِ من وقائعِ التّاريخِ فهي أَدواتٌ مساندةٌ للعقلِ لها أَهميّتُها في التّفكيرِ الأَخلاقيّ.

ومَثَّلَ المنهجُ العقليُّ خمسَ شخصيّاتٍ هي: محمّد عبده، ومحمّد عبد الله دِرَاز، وتوفيق الطّويل، وزكريّا إبراهيم، وعبدُ الرّحمن بدويّ، اختلفتْ توجّهاتُهم وجمهورُهم وغاياتُهم في التّفكيرِ الأَخلاقيّ، كما اختلفَ موقفُهم من استعمالِ أَدواتِ المعرفةِ الأُخرى، وتنوّعتْ آراؤهم الأَخلاقيّةُ بما أَثرى التّفكيرَ الأَخلاقيّ في القرنِ العشرين.

واختير الأعلام الخمسةِ في تمثيل المنهجِ العقليّ؛ لغلبةُ استعمالِهم العقلَ كأَداةٍ أَساسيّةٍ في التّفكيرِ الأَخلاقيّ، فالعقلُ عندَ محمّد عبده أَساسُ تفكيرِه الأَخلاقيّ وتفسيرِه للقرآنِ الكريمِ، وكتابُ محمّد دِرَاز «دستورُ الأَخلاقِ» محاولةٌ عقليّةٌ لاستخلاصِ أُصولِ الأَخلاقِ من القرآنِ الكريمِ، أَمّا توفيقُ الطّويل فاعتمدَ على العقلِ في

(*) باحثة بمرحلة الدكتوراه بقسم الفلسفة الإسلامية – كلية دار العلوم – جامعة القاهرة.

استخلاصِ المبادئ الأَخلاقيّةِ وتأكيدِ مثاليّتِه، وقامتْ فلسفةُ زكريّا إبراهيم على رؤيةِ العقلِ وتدبّرِه، ورأى عبدُ الرّحمن بدويّ بأَهميّةِ العقلِ الفرديّ الذي يعني تجربةَ صاحبِه الخاصّةَ الوجوديّةَ.

ومن أبرز القضايا الأخلاقية التي تتبين بها مناهج التفكير الأخلاقي قضية الإلزام الذي يعتبر كما قالَ محمّد دِرَاز بأَنّه: "القاعدةُ الأَساسيّةُ والمدارُ والعنصرُ النّوويُّ الذي يدورُ حولَه كلُّ النّظامِ الأَخلاقيّ، والذي يؤدّي فقدُه إلى سحقِ جوهرِ الحكمةِ العمليّةِ ذاته؛ ذلكَ أَنّه إذا لم يعدْ هناكَ إلزامٌ فلن تكونَ هناكَ مسؤوليّةٌ، وإذا عُدِمت المسؤوليّة فلا يمكنُ أَن تعودَ العدالةُ، وحينئذٍ تتفشّى الفوضى ويفسَدُ النّظامُ وتعمُّ الهمجيّةُ لا في مجالِ الواقعِ فحسْبٍ، بل في مجالِ القانونِ أَيضاً وطبقاً لما يسمّى بالمبدأ الأَخلاقيّ"[1].

* * *

(١) دِرَاز، محمّد عبد الله/ دستور الأخلاق في القرآن ص٤٣.